اسم الكتاب: على خُطى على.

تأليف: الشيماء فراج.

النوع: رواية.

تصميم الغلاف: مؤسسة برديس.

تنسيق داخلي: اينور جلال.

الدار: دار اليانور للنشر الإلكتروني.

رقم تواصل الدار: 01151293168.

جميع حقوق النشر محفوظة©

يمنع مانعًا باتًا الأقتباس أو إعادة النشر سواء بالطباعة، أو النشر الإلكتروني، أو التصوير الضوئي للمحتوى، أو أي جزء منه إلا بأذن كتابي من الناشر و المؤلف.

و من يخالف ذلك يعرض نفسة المساءلة القانونية طبقًا لحقوق الملكية الفكرية المنصوص عليها في القانون.

المقدمة

في زحام الحياة، حيث تتسارع الخطى وتبهت القيم، تظل بعض القلوب تبحث عن نور تسترشد به وسط العتمة.

خديجة... فتاة عادية، لكن قلبها لم يرضَ أن يمر على الحكايات مرور العابرين. كانت كل زيارة لجدها نافذة تُفتح على زمن الصحابة، زمن كان فيه العدل فعلًا، والرحمة طريقًا، والشجاعة مبدأ.

وفي كل حكاية، لم تكن تسمع فقط، بل كانت تلتقط خيطًا جديدًا تنسجه في حياتها، حتى صار الماضي يسري في حاضرها، وكأن علي بن أبي طالب رضي الله عنه يمشي معها في الشوارع، يشاركها المواقف، ويهمس لها بالاختيار الصحيح.

كانت خديجة تحبُّ زيارة جدّها كل أسبوع، لا لشيء أكثر من جلساته الدافئة وحكاياته التي لا تنضب. كان يجلس على أريكة قديمة في ركن المجلس، وبيده مسبحة من خشب الزيتون، يرفع بصره إلى أحفاده ويبدأ الحديث:

"اليوم سأحكي لكم عن بطلٍ جديد من أصحاب رسول الله ﷺ...".

كل أسبوع، بطل جديد، وقصة مختلفة؛ مرة عن الصدّيق أبي بكر، وأخرى عن الفاروق عمر، وأحيانًا عن عثمان ذي النورين، ولكن أكثر ما كان يأسر قلبها هي الحكايات عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، شجاعته، وفاؤه، وصبره على الشدائد.

كانت تلك الجلسات بالنسبة لخديجة أكثر من مجرد تسلية؛ كانت ملاذًا تلجأ إليه من هموم الحياة. فهي تعاني من مشاكل تثقل قلبها، لكن حين تجلس إلى جوار جدها، وتسمع عن الصحابة وهم يواجهون المحن ويقهرون الخوف بالإيمان، كانت تشعر بطاقة جديدة تسري في عروقها.

كانت تؤمن أن هذه القصص ليست من الماضي، بل رسائل حيّة، تذكّرها أن الصبر قوة، وأن مواجهة الصعاب تبدأ بإيمان لا يتزعزع. ولذلك، لم يكن يمر أسبوع إلا وذهبت إليه، لتفرغ ما في قلبها، وتستمد من كلماته وقودًا يكفيها حتى اللقاء القادم.

ذهبت خديجة إلى بيت جدها في مساء هادئ، تحمل في قلبها أثقالًا لا تراها العين، لكنها تشعر بثقلها في كل خطوة. كانت تعرف أن هذه الزيارة لن تمحو همومها، لكنها ستخفف عنها، كما يفعل المطر حين يغسل غبار الطريق.

دخلت غرفة جدها، فوجدته جالسًا على كرسيه الخشبي العتيق، يتأمل صفحات مصحف صغير بين يديه. ابتسم حين رآها، وأشار لها بالجلوس قربه. جلست على الأرض كما كانت تفعل وهي طفلة، وأسندت رأسها على وسادة قديمة بجواره.

بدأت تتحدث بصوت متهدج:

– يا جدي... أنا متعبة. في عملي يظلمونني بلا سبب، يتجاهلون جهدي، ويحمّلونني أخطاء غيري. لا أعرف لماذا يقسو الناس هكذا...

أصغى الجد في صمت، يحرك رأسه ببطء، وكأنه يزن الكلمات قبل أن يرد.

قال بعد لحظة:

– يا خديجة، سأروي لكِ اليوم قصة عن رجل لا يعرفه الظلم، بل كان هو العدل بعينه... عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وبعد أن تنتهي القصة، سنجلس معًا لنرى ماذا فهمتِ منها، وكيف يمكن أن تغيّرك.

نظرت إليه خديجة بعينين يملؤهما الفضول والرجاء، وهي تعرف أن ما سيأتي لن يكون مجرد حكاية، بل دواءً لقلبها المثقل.

حكاية الجد – علي والعدل

ابتسم الجد، وأخذ نفسًا عميقًا قبل أن يبدأ:

– يا خديجة، كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه خليفة المسلمين، ورغم عِظَم مكانته، كان يجلس بين الناس كواحدٍ منهم. لم يكن يرفع نفسه فوق أحد، بل كان يساوي بينهم في الحق.

في يوم من الأيام، جُعل بين يديه خصومة بينه وبين رجل من عامة الناس. كان النزاع حول درع حربية، وكل واحد منهما يقول إنها له. فأمر علي بأن يُحضر القاضي شريح، وهو قاضٍ معروف بعدله.

جلس أمير المؤمنين أمام القاضي، والرجل يجلس مقابله، والناس ينظرون في دهشة: كيف يجلس الخليفة في مجلس القضاء مثل أي رجل؟

سأله القاضي:

– يا أبا الحسن، هل لك بيّنة على أن الدرع لك؟

فأجاب علي بهدوء:

– لا، ليس عندي بيّنة، إنما هي في يدي هذا الرجل، وأنا أقول إنها لي.

فقال القاضي:

– إذًا لا حق لك فيها إلا ببيّنة.

فقضى القاضي بالدرع للرجل الآخر، لأن القوانين العادلة لا تفرّق بين أمير وفقير.

ابتسم علي، ونهض من مجلسه، ثم أعطى الرجل الدرع دون غضب أو اعتراض، رغم أنه كان أمير المؤمنين.

لكن الرجل، وقد رأى عدل علي وتواضعه، شعر بالخجل، فقال:

– أشهد أن هذه أخلاق الأنبياء... والله إن الدرع لك يا أبا الحسن، ولكني أخذتها ظلمًا.

هنا تنهد الجد وأكمل:

– يا خديجة، لو أراد علي أن يأخذ الدرع بالقوة لفعل، ولكن العدل لا يعرف القوة، بل يعرف الحق. وتذكّري، يا ابنتي، أن الظلم الذي يصدر من غيرك لا يبرر أن تردّي بظلم مثله...

سكتت خديجة قليلًا، وشعرت أن قلبها بدأ يهدأ، وكأن القصة وضعت مرآة أمامها لترى الأمور بوضوح.

بعد القصة – التأمل والتطبيق

جلست خديجة تحدّق في يدَي جدها، وقد شعرت أن القصة لم تكن عن درع حديد، بل عن درعٍ من القيم والمبادئ. قالت بصوت خافت:

– يعني يا جدي... حتى لو كنت أنا على حق، وما قدرتش أثبّت ده، لازم أقبل باللي يحصل؟

ابتسم الجد وقال:

– ليس الأمر استسلامًا يا خديجة، بل هو اختيار للطريق الذي يرضي الله. قد يخذلك الناس، لكن الله لا يخذل من يثبت على الحق.

في اليوم التالي، ذهبت خديجة إلى عملها وهي تحاول أن تحمل هدوء القصة معها. حين واجهتها مديرة القسم باتهام جديد، تذكّرت عليًّا وهو يسلّم الدرع بلا غضب، فاختارت أن ترد بهدوء، وتطلب النقاش بالأدلة، دون صراخ أو انفعال.

كان الأمر صعبًا، لكنها شعرت أن في قلبها قوة جديدة. ربما لم تنصفها الإدارة فورًا، لكنها خرجت من الموقف وهي فخورة بنفسها.

بعد أسبوع – الموقف الجديد

مرت الأيام، لكن العمل لم يخلُ من الصعوبات. في ذلك الأسبوع، حدث أمر أكبر: أُسند مشروع مهم إلى زميلٍ لها كان أقل خبرة منها بكثير، فقط لأنه مقرّب من المدير.

في البداية شعرت بالغضب، وكادت أن تواجهه بكلمات حادة، لكنها توقفت. تنفست بعمق وقالت في سرّها: "سأذهب إلى جدي... لابد أن عنده قصة لهذا أيضًا."

في مساء الجمعة، كانت تجلس مجددًا في غرفة الجد. كان الجو ماطرًا، وصوت المطر على النوافذ يضيف دفئًا للمكان. جلست أمامه وقالت:

– يا جدي، أشعر أنني مهما حاولت، تأتي الحياة لتضعني في موقف أصعب. هذه المرة أخذوا مني مشروعًا مهمًّا وأعطوه لغيري، فقط لأنه صديق المدير!

أطرق الجد رأسه قليلًا، ثم رفع عينيه إليها وقال:

– إذًا حان وقت أن أحدثك عن شجاعة علي رضي الله عنه في مواجهة الظلم... لا بالانفعال، بل بالصبر والثبات حتى النصر. وسأروي لك عن ليلة المبيت في فراش النبي ﷺ.

حكاية الجد – ليلة المبيت في فراش النبي ﷺ

أخذ الجد نفسًا عميقًا، ونظر إلى المطر المتساقط خلف النافذة، ثم بدأ يحكي:

– يا خديجة، في ليلة من أعظم ليالي التاريخ، اجتمع سادة قريش في دار الندوة، واتفقوا على أمر خطير... أن يقتلوا النبي محمد ﷺ، حتى يتفرق دمه بين القبائل ولا يطالبهم بنو هاشم بالقصاص.

أخبر الله نبيه بالمؤامرة، وأمره أن يخرج من مكة سرًّا متجهًا إلى المدينة. لكن هناك مشكلة... كان الكفار قد أحاطوا بالبيت، يترقبون خروج النبي ليقتلوه.

في تلك الليلة، جاء النبي ﷺ إلى علي بن أبي طالب، وكان شابًا في مقتبل العمر، وقال له:

"يا علي، نم في فراشي، وتغطَّ ببردي الأخضر، فلن يصلوا إليك بسوء."

تخيلي يا خديجة... كان يعلم أن الرجال خارج البيت يحملون السيوف، ومع ذلك لم يتردد، بل نام مطمئنًا في الفراش، واضعًا حياته فداءً لرسول الله ﷺ.

لم يكن هذا مجرد شجاعة، بل كان ثباتًا على الحق، وثقة بالله أن ما كُتب له سيحدث، وما لم يُكتب لن يصيبه.

الجد يربط القصة بموقف خديجة

التفت الجد إليها وقال:

– يا خديجة، أحيانًا تكون الشجاعة أن تتحمّلي موقفًا صعبًا دون أن تتركي الحق، حتى لو شعرتِ بالظلم. علي رضي الله عنه لم يواجه القوم بالسيف تلك الليلة، بل واجههم بثبات القلب، وخرج منها منتصرًا لأنه أدى الأمانة.

– المشروع الذي أخذوه منكِ... ربما كان في ظاهره خسارة، لكن في باطنه تدريب لكِ على الصبر والثقة بأن ما كتبه الله لكِ لن يأخذه غيرك.

– تذكري يا ابنتي... ليس كل معركة تُكسب بالصوت العالي أو المواجهة المباشرة. أحيانًا الانتصار يكون في أن تظلي ثابتة حتى تمر العاصفة.

ابتسمت خديجة، وشعرت أن المطر خارج النافذة يشبه ما في قلبها... بدأ غائمًا، لكنه يغسل الأرض، ليتركها أصفى مما كانت.

مشهد العائلة – بداية القصة الجديدة

كانت رائحة الطعام تعبق في أرجاء بيت الجد، وصوت ضحكات الأطفال يملأ الصالة. اجتمعت العائلة كلها حول المائدة الكبيرة، حيث تتوسطها أطباق الأرز واللحم والسلطات.

جلست خديجة بين إخوتها وأبناء عمومتها، تحاول أن تشاركهم الحديث، لكن عينيها كانتا شارِدتين، تتابع حركة الملاعق دون أن تذوق الطعام.

لم يكن يخفى على جدها ما بها؛ فقد عرفها منذ طفولتها، وكان يقرأ ملامحها كما يقرأ صفحة كتاب مفتوح. انتظر حتى انتهى الجميع من الطعام، ثم قال بصوت هادئ:

– يا خديجة، تعالي معي قليلًا.

قادها إلى غرفته الصغيرة، حيث مكتبة خشبية مليئة بالكتب القديمة ورائحة الورق العتيق. أغلق الباب، وجلس على كرسيه الخشبي المعتاد، وأشار لها بالجلوس أمامه.

قال بنبرة حانية:

– ما بكِ يا ابنتي؟ اليوم لم أركِ كما أنتِ دائمًا.

تنهدت خديجة وقالت:

– يا جدي... كنت في نزهة مع صديقاتي، وحصل خلاف كبير. اتهمتني إحداهن أنني تعمدت إحراجها أمام الناس، وهذا لم يحدث أبدًا. حاولت أن أشرح، لكنها لم تصدقني، بل ابتعدت عني وكأنني أخطأت في حقها عمدًا. أشعر بالضيق والحزن، ولا أريد أن أفقد صداقتها، لكني في نفس الوقت أشعر أنني مظلومة.

ابتسم الجد ابتسامة صغيرة، وقال:

– إذًا حان الوقت أن أحكي لكِ عن موقف من حياة علي بن أبي طالب رضي الله عنه... موقف يعلمنا كيف نواجه الظلم بالرفق، ونرد الإساءة بالإحسان.

حكاية الجد – حلم علي مع المسيء

جلس الجد في كرسيه، وأسند يديه على عصاه، ثم قال بصوت عميق:

– يا خديجة، كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يومًا يسير بين الناس، فاعترضه رجل وأخذ يسيء إليه بكلمات جارحة أمام الجمع. لم يكن أحد يتوقع ما سيفعله أمير المؤمنين... فالكل كان يعلم أنه فارس لا يهاب القتال، ولكنه كان أيضًا حكيمًا يعرف متى يستخدم السيف، ومتى يستخدم الصبر.

أصغى علي إلى كلام الرجل حتى انتهى، ثم نظر إليه بهدوء، وقال:

"إن كنتَ صادقًا، غفر الله لي، وإن كنتَ كاذبًا، غفر الله لك."

ثم مضى في طريقه، لا يلتفت ولا يرد بغلظة، حتى تعجب الناس من حلمه وسعة صدره.

هذا الموقف، يا ابنتي، جعل من كان يسيء إليه يندم ويشعر بالخجل، لأن الحلم أحيانًا أقوى من الرد العنيف.

الجد يربط القصة بموقف خديجة

– يا خديجة، ما حدث مع صديقتك قد يكون عن سوء فهم أو تسرع في الحكم، وربما لا تصدقك الآن، لكن رفقك بها سيجعلها تعيد التفكير. لا تدفعيها بعيدًا بردة فعل غاضبة، بل قربيها بكلمة طيبة، أو حتى بصمت حكيم، كما فعل علي رضي الله عنه.

– تذكري أن القلب الذي يحافظ على هدوئه أمام الظلم، هو قلب قوي لا تهزه الكلمات.

ابتسمت خديجة قليلًا، وشعرت أن الحزن في صدرها بدأ يلين، وكأن القصة فتحت لها بابًا كانت تجهله.

مرت أسابيع على لقائها الأخير مع الجد، وخديجة بدأت تحاول تعيش بالدروس اللي علمها لها.

وفي أحد الأيام، جاءها خبر أربكها: الجامعة أعلنت عن مسابقة بحثية كبرى، يشارك فيها طلاب من مختلف التخصصات، والفائز يحصل على منحة دراسية للسفر للخارج.

كانت المسابقة صعبة، والمشاركون أقوياء، وخديجة تعرف أن هذا النوع من التحديات يحتاج جرأة وثقة كبيرة بالنفس.

لكن المشكلة... أنها تكره الوقوف أمام جمهور، وتشعر بالتوتر إذا طلب منها التحدث أمام لجنة تحكيم.

في البداية فكرت في الانسحاب، حتى قبل أن تبدأ، لكن داخلها كان صوت صغير يقول: "حاولي... لا تضيّعي الفرصة."

وفي مساء الجمعة، كالعادة، كانت العائلة مجتمعة على مائدة العشاء في بيت الجد. الكل كان يضحك ويتحدث، لكن الجد لاحظ أن خديجة صامتة، تنظر إلى طبقها وتعبث بالملعقة.

بعد الطعام، أشار لها أن تأتي معه إلى غرفته. جلس على كرسيه الخشبي، ونظر إليها وقال:

– هذه المرة لن أسألكِ إن كان هناك ما يزعجك... لأنني أرى الإجابة في عينيك. ما الأمر يا ابنتي؟

أخبرته خديجة بكل شيء عن المسابقة، وعن خوفها من الفشل أو الإحراج أمام الناس.
ابتسم الجد وقال:

– إذن حان وقت أن أحدثكِ عن شجاعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه... وكيف كان يواجه المواقف العصيبة وكأنها فرص للنصر.

حكاية الجد – علي في غزوة الخندق

جلس الجد وأسند ظهره للكرسي، وعيناه تحملان لمعة حماس، وقال:

– يا خديجة، كانت غزوة الخندق من أصعب أيام المسلمين. اجتمع المشركون واليهود وبعض القبائل، وحاصروا المدينة المنورة من كل جانب. الصحابة حفروا خندقًا عميقًا ليمنعوا العدو من الدخول، لكن كان هناك فارس من قريش يُدعى عمرو بن عبد ودّ، مشهور بالشجاعة والقوة، حتى كانوا يقولون: "يعدّ بألف رجل".

قفز عمرو بحصانه فوق الخندق، ووقف ينادي بأعلى صوته متحديًا:

"من يبارز؟"

سكت الصحابة، فالخوف كان يملأ القلوب، إلا قلب شاب في أوائل الثلاثين من عمره... علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قام وقال:

– أنا له يا رسول الله.

لكن النبي ﷺ طلب منه أن يجلس في المرة الأولى، ثم كرر عمرو التحدي مرة ثانية، فقام علي وقالها بثبات أكبر:

– أنا له يا رسول الله.

هذه المرة أذن له النبي، وأعطاه سيفه، وقال: "اللهم أعنه."

تقدّم علي نحو عمرو، والناس ينظرون بقلوب وجلة. دار بينهما قتال شديد، لم يدم طويلًا حتى رفع علي سيفه بضربة حاسمة، فصرع الفارس الذي كانت تهابه جموع الكفار، وعاد إلى المعسكر المسلم، والابتسامة على وجهه، وكأنه أدى مهمة عادية.

الجد يربط القصة بخديجة

– يا خديجة، الشجاعة ليست أن تخلو من الخوف، بل أن تواجه ما تخافه وتخطو نحوه بثقة.

علي رضي الله عنه لم ينتظر أن تزول رهبة عمرو، بل دخل الميدان وهو يعلم أن النصر بيد الله وحده.

– أنتِ الآن أمام تحدٍ يشبه خندقكِ الصغير... لجنة التحكيم ليست عدوًا، لكنها ساحة تحتاج أن تدخليها بثبات، وتذكري أن النصر ليس أن تفوزي بالمسابقة فقط، بل أن تقهري خوفك وتقفي بثقة.

نظرت خديجة إلى جدها، وشعرت أن قلبها بدأ ينبض بالحماس بدل القلق، وكأنها على وشك أن تخوض معركتها الخاصة.

الميراث المختلف عليه.

في إحدى أمسيات الشتاء، اجتمعت العائلة في بيت أحد الأعمام بعد وفاة قريب لهم، لبحث تقسيم الميراث.

لكن النقاش لم يسر على ما يرام... أصوات ارتفعت، ووجوه احمرّت، وكل شخص بدأ يتمسك بحصته، بل ويشك في نوايا الآخرين.

جلست خديجة في زاوية الغرفة، تتابع الموقف بقلق، وهي ترى أن الخلاف بدأ يهدد روابط العائلة.

وفي اليوم التالي، ذهبت إلى بيت الجد، لتجد العائلة مجتمعة لتناول الغداء. حاولت أن تبدو طبيعية، لكن الجد، بعينه الخبيرة، لاحظ الشرود في ملامحها.

بعد الطعام، أشار لها أن تلحق به إلى غرفته.

– أرى أن هناك ما يقلقك يا خديجة... أتعلق بخلاف الميراث الذي سمعته أمس؟

هزت رأسها بالإيجاب، فقال الجد:

– إذن دعيني أحكي لك عن موقف لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه يبيّن كيف كان يعدل حتى مع خصومه، ويعطي كل ذي حق حقه.

حكاية الجد – علي والمزارع الفقير

– كان في الكوفة رجل فقير يملك قطعة أرض صغيرة بجوار أرض كبيرة يملكها رجل غني.

ذات يوم، جاء الغني يشتكي لعلي أن الفقير تعدّى على حد أرضه.

استدعى علي الرجلين، واستمع لكل منهما بالتساوي، ثم ذهب بنفسه إلى الأرض ليتأكد من الحدود، ومعه شهود من أهل القرية.

وحين تبيّن أن الغني هو الذي أخطأ وضم شبرًا من أرض الفقير، لم يكتفِ علي بإعادة الأرض، بل أمر الغني أن يعوّض الفقير عن الضرر الذي سببه له.

تعجب الناس من أن أمير المؤمنين ينصف رجلاً فقيرًا على حساب رجل ذي نفوذ، فقال علي كلمته:

"لو كان الحق مع الضعيف وجب أن يُعطى حقه بلا خوف، ولو كان مع القوي وجب أن يُعطى حقه بلا مجاملة."

الجد يربط القصة بخديجة

– يا خديجة، إذا أردتِ أن تصلحي الخلافات في العائلة، تذكري أن العدل هو الميزان، لا الحب ولا القرابة.

– لا تميل كفة ميزانكِ إلا بما يثبته الحق، حتى لو كان ضد الأقرب. هذا هو ما يجعل الناس يثقون بكِ ويحترمون كلمتك.

ابتسمت خديجة، وشعرت أن الجد لا يعلّمها عن الصحابة فقط، بل يعلّمها كيف تكون إنسانة ثابتة في المواقف الصعبة.

الحيرة

كانت خديجة جالسة في غرفتها، تحدق في شاشة هاتفها، تقلب بين الرسائل القديمة لشخص كانت تظن أنه يبادلها الاهتمام، لكنها بدأت تشعر مؤخرًا أن الأمر مجرد كلمات دون أفعال.

صارت مترددة: هل تتمسك به على أمل أن يتغير؟ أم تمضي في طريقها؟

وفي مساء الجمعة، اجتمعت العائلة في بيت الجد، وكان الجو مليئًا بالأحاديث والضحكات. لكن الجد، كعادته، التقط الشرود في عيني خديجة، وكأنه يقرأ ما يدور في قلبها.

بعد العشاء، أشار لها أن تأتي معه إلى الغرفة. جلسا، وسألها بلطف:

– أرى قلبك منشغلًا يا خديجة، ما الأمر؟

ترددت قليلًا، ثم قالت:

– مش عارفة يا جدي... بحس إني متمسكة بشخص يمكن ما يستحقش. مش فاهمة إذا كان ده حب ولا وهم.

ابتسم الجد ابتسامة خفيفة، وقال:

– سأحكي لك عن حب من أنقى ما يكون... حب علي بن أبي طالب لفاطمة الزهراء رضي الله عنها، وكيف كان حبًا قائمًا على المودة والرحمة، لا على الكلمات فقط.

حكاية الجد – حب علي لفاطمة

– بعد غزوة بدر، تقدّم علي لخطبة فاطمة، ابنة رسول الله ﷺ. لم يكن غنيًا ولا صاحب مال، لكنه كان صاحب دين وخلق.

أعطى مهرًا بسيطًا، وكان بيت الزوجية متواضعًا، حتى إن وسادتهما كانت من جلد محشو بألياف النخل.

لكن رغم قلة المال، كان علي يعمل بيده ليوفر لفاطمة ما تحتاجه، وفاطمة بدورها كانت تصبر وتعينه، حتى إذا اشتد عليها العمل ذهبت للنبي ﷺ تطلب خادمًا، فقال لها:

"ألا أدلكما على ما هو خير لكما من خادم؟ إذا أويتما إلى فراشكما، فسبحا الله ثلاثًا وثلاثين، واحمَداه ثلاثًا وثلاثين، وكبّراه أربعًا وثلاثين."

وكان علي يقول بعد ذلك: "ما تركتها منذ علّمنيها رسول الله ﷺ."

هذا هو الحب يا خديجة... مشاركة في الحلو والمر، ودعم وقت الشدة قبل الفرح، وصدق في الفعل قبل القول.

الجد يربط القصة بخديجة

– يا ابنتي، الحب الحقيقي يظهر عندما يثبت الإنسان أنه سند وقت الحاجة، لا حين يكون كل شيء بخير فقط.

– إذا رأيتِ أن من أمامك لا يتحمل مسؤولية الكلمة التي يقولها، أو لا يسعى ليكون عونًا لكِ، فاعلمي أن هذا ليس حبًا، بل وهمًا سيستهلك قلبك بلا فائدة.

شعرت خديجة أن قلبها أصبح أخف، وكأنها بدأت ترى الأمر بوضوح لم تره من قبل

ظل الغياب

كنت أظن أنني أستطيع مواجهة الأمر وحدي... لكن منذ أن رحلت صديقتي مريم فجأة، وأنا أشعر أن جزءًا مني انكسر.

لم يكن بيننا دم، لكن كانت بيننا عشرة سنين، وأسرار لا يعرفها سوانا.

اليوم، مررت بالمكان الذي كنا نلتقي فيه دائمًا، فوجدته كما هو... سوى أن الكرسي الذي كانت تجلس عليه فارغ، والضحكة التي كانت تملأ الجو صارت صمتًا ثقيلًا.

لم أستطع الرجوع للبيت، قدماي أخذتاني بلا وعي إلى بيت جدي. كان الوقت مساءً، والبيت شبه مظلم، لم أجد أحدًا في الصالة، فقط رائحة القهوة تأتي من المطبخ.

ناديت:

– جدي؟

سمعت صوته من الحديقة الخلفية. وجدته جالسًا على مقعد خشبي، ينظر للسماء وكأنه يعد النجوم. جلست بجانبه بصمت.

لم يسألني ماذا بي، فقط قال:

– تعرفين يا خديجة... النجوم التي ترحل لا تنطفئ، بل تظل تلمع في مكان آخر.

لم أتمالك نفسي، فدمعت عيناي، وقلت:

– جدي... أنا تعبت من فكرة الفقد. كيف يعيش الإنسان بعد أن يخسر من يحب؟

ابتسم بحزن، ثم بدأ يحكي...

حكاية الجد – علي وفقد الأحبة

– يا خديجة، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقد الكثير من أحبته، وفقد من كان روحه وقلبه... رسول الله ﷺ.

تخيلي، كيف يكون حالك إذا غاب عنك من علّمك معنى الحياة كلها؟

بعد وفاة النبي ﷺ، كان علي يدخل المسجد، فيرى مكان جلوسه فارغًا، فيبكي حتى تبتل لحيته. لكنه رغم الحزن الشديد، لم يتوقف عن خدمة الناس ونصرة الحق.

وحين فقد زوجته فاطمة الزهراء رضي الله عنها، ظل يزورها في قبرها، ويقف صامتًا طويلًا، ثم يعود لبيته ليكمل مسؤوليته في تربية أبنائه ورعاية الأمة.

كان يقول:

"اصبر على ما لم تكن تتوقعه، فإن فيه من الخير ما لم تكن ترجوه."

الجد يربط القصة بخديجة

– يا ابنتي، الفقد لا يُنسى، لكنه يُحتمل. والذين يرحلون، إن كانوا قد تركوا فيكِ أثرًا جميلًا، فأنتِ تحملينهم معكِ أينما ذهبتِ.

– الحزن لا يعني أن تتوقفي عن الحياة، بل يعني أن تعيشي وأنتِ تعرفين أن في قلبك قطعة من الجنة تنتظرك هناك.

الطريق المزدحم

كنت عائدة من الجامعة متأخرة ذلك اليوم. الشارع كان مزدحمًا، وأصوات السيارات تختلط ببائعي الكعك والذرة على الأرصفة.

وأنا أسير على الرصيف، سمعت صراخًا مفاجئًا، التفتّ فرأيت رجلاً مسنًّا يحاول عبور الشارع وهو يحمل أكياسًا ثقيلة، بينما السيارات تمر بسرعة مخيفة.

لم أفكر، ركضت نحوه، أمسكت بذراعه، وحاولت تهدئة حركة السيارات بالإشارة بيدي. توقفت إحدى السيارات أخيرًا، ونجحنا في العبور.

ابتسم الرجل وهو يلهث، وقال:

– ربنا يكرمك يا بنتي... كنت فاكر خلاص مش هعرف أعدي.

أكملت طريقي، لكن قلبي ظل يفكر: كم من الناس تمرّ على مثل هذا الموقف ولا تتحرك؟ وكم مرة مررت أنا من قبل دون أن ألاحظ أحدًا؟

في المساء، ذهبت لبيت جدي بدون تخطيط. كان جالسًا أمام التلفاز يتابع الأخبار، فجلست بجانبه وأخبرته بما حصل.

ابتسم وقال:

– موقفك اليوم يذكرني بموقف لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، لكن ليس في الشارع... بل في المسجد، حيث كانت مسؤوليته أكبر.

حكاية الجد – علي وحماية الضعفاء

– كان علي رضي الله عنه يسير يومًا في الكوفة، فوجد رجلاً أعمى يسأل الناس. اقترب منه وسأله: "من الذي أخرجك إلى هذا؟"

فقال الرجل: "لا أحد يعينني."

أخذ علي بيده، وأوصى به بيت المال، وأمر أن يُعطى ما يكفيه من الرزق، وقال:

"ما هذا؟! والله ما أنصفناه، أن نأخذ منه الجزية في شبابه ثم نضيّعه في شيخوخته."

لم يتركه حتى ضمن له العيش بكرامة، لأنه كان يرى أن حماية الضعيف ورعايته واجب لا يسقط مع مرور الزمن.

الجد يربط القصة بخديجة

– يا خديجة، الخير ليس في أن نساعد من نعرفهم فقط، بل أن نمد يدنا لكل محتاج نلتقيه، حتى لو كان غريبًا عنا تمامًا.

– ما فعلتيه اليوم هو بداية، لكن لو أردتِ الاقتداء بالصحابة، اجعليه عادة، لا صدفة.

على الرصيف

ذلك اليوم كان المطر يتساقط بخفة، والسماء رمادية كأنها تبكي.

كنت أسير بسرعة نحو محطة الحافلات، حين لفت نظري مشهد على الرصيف المقابل:

طفلة صغيرة، لا تتجاوز العاشرة، جالسة على الأرض تحت مظلة مكسورة، بجانبها صندوق خشبي فيه بضع علب مناديل تبيعها للمارة.

كانت ملابسها مبللة، يداها ترتجف من البرد، وعيناها تتبعان الناس، لكن معظمهم مرّ بجانبها دون حتى أن ينظر إليها.

ترددت لحظة، ثم عبرت الشارع واقتربت منها. سألتها:

– ليه مش في البيت يا حبيبتي؟

قالت بصوت خافت:

– مفيش بيت...

تجمدت الكلمات على لساني. أعطيتها ما في محفظتي، واشتريت كل ما معها من علب مناديل، ثم ظللت أمشي وأنا أشعر بثقل غريب على قلبي.

في المساء، لم أستطع النوم. وجدت نفسي أذهب لبيت جدي بدون أن أخبر أحدًا. كان في غرفة المكتب، يكتب شيئًا.

رفع عينيه نحوي، وقال:

– يبدو أن قلبك مثقل الليلة.

جلست، وحكيت له كل ما رأيت.

حكاية الجد – علي وأبوة الأيتام

– يا خديجة، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان يلقب نفسه بـ "أبو اليتامى".

حين كان والياً في الكوفة، كان يخرج بنفسه يتفقد أحوالهم، فإذا وجد يتيمًا بلا طعام أو كساء، جلس معه وأطعمه بيده، وأحيانًا كان يمضغ الطعام أولاً ليُليِنه ثم يضعه في فمه إذا كان صغيرًا لا يستطيع المضغ.

وكان إذا رأى يتيمًا حزينًا، جلس أمامه يلاعبه ويمسح على رأسه، حتى يضحك.

بل إن بعض الأيتام الذين ربّاهم كانوا يأتون إليه بعد أن كبروا ويقولون: "أنت لنا أبٌ بعد أن فقدنا آباءنا."

وكان يوصي ولاته قائلاً:

"الله الله في الأيتام، فلا تغيّبوا أفواههم، ولا يضيعوا بحضرتكم."

الجد يربط القصة بخديجة

– يا ابنتي، علي لم يكن ينتظر أن يأتيه اليتيم، بل كان هو الذي يبحث عنهم.

– إذا أردتِ أن تسيري على طريقه، اجعلي من قلبك عينًا ترى الحزانى قبل أن يطلبوا المساعدة.

إضافة للمشهد داخل حكاية الجد

– يا خديجة، ومن أكثر المواقف التي لا أنساها ما رواه بعض أهل الكوفة...

كان علي رضي الله عنه يسير في السوق، فرأى امرأة أرملة تحمل جرة ماء على كتفها، تتعثر من ثقلها. اقترب منها وأخذ الجرة منها دون أن يعرفها بنفسه، ومشى خلفها حتى أوصلها إلى بيتها الصغير.

وعندما وضع الجرة، سألها:

– ما حالك يا أمة الله؟

فقالت:

– زوجي خرج مع علي بن أبي طالب في بعض الغزوات، فاستُشهد، وترك لي أيتامًا، ولا أحد يعينني، فأعمل في البيوت وأحمل الماء لأطعمهم.

لم تقلها بغضب، لكنها كانت تجهل أنه يقف أمامها.

عاد علي في اليوم التالي، ومعه كيس دقيق ولحم وتمر، وحملها بنفسه، حتى إذا وصل، طرق الباب، ولما فتحت، قال:

– أنا الذي قصّرت في حقكم، فاغفروا لي.

ثم جلس في بيتها، وأخذ يخبز بيديه ويقول للأيتام:

– اجعلوني أُطعمكم، فأنا أبوكم بعد أبيكم.

حتى إن جيرانها قالوا: رأينا عليًا يلعب مع الصغار، يضع التمر في فمه ويمضغه، ثم يطعمه لهم ليكون ألين.

الجد ينهي القصة

– يا خديجة، الرحمة ليست كلمة، بل فعل. وعلي كان إذا رأى الضعيف لا يسأله: **"هل تحتاج شيئًا؟"** بل كان يبدأ بالعمل وكأن الأمر واجبه، لا فضله.

أثر الكلمة

مرت أيام قليلة بعد جلسة خديجة مع جدها. كانت تمشي في الشارع عائدة من المكتبة، والنهار دافئ والشمس تميل نحو الغروب.

على الرصيف المقابل، رأت سيدة كبيرة السن تحاول الصعود على درج محطة القطار، بينما تحمل حقيبة تسحبها بصعوبة.

لم تتردد، أسرعت نحوها، ابتسمت وقالت:

– خليني أساعدك يا خالة.

أخذت الحقيبة بيدها، وسارت بجانبها حتى وصلت بها إلى المقاعد داخل المحطة. جلست المرأة تدعو لها وهي تقول:

– ربنا يكثر من أمثالك.

ابتسمت خديجة، لكنها لم ترد بشيء، فقط خطر في بالها صوت جدها:

"علي كان يبحث عن المحتاج قبل أن يطلب المساعدة."

واصلت يومها بشكل طبيعي، ذهبت لتقابل صديقتها لتناول القهوة، وضحكت معها وتبادلا الأخبار.

لكنها لاحظت أن أي موقف صغير أمامها صار يذكّرها بما سمعته من حكايات، وكأنها تضع في ذهنها سؤالًا دائمًا:

"ماذا كان علي سيفعل لو كان هنا؟"

وفي المساء، وهي تعود إلى المنزل، مرت على متجر صغير ورأت طفلين يبيعان الزهور. توقفت، اشترت منهما باقة كبيرة، وأعطت لهما ثمنًا أكثر مما طلبا. ثم أكملت طريقها وهي تشعر أن قلبها صار أدفأ من قبل.

الموقف الأصعب

كانت خديجة في طريقها من العمل إلى البيت، الشارع مزدحم، والجو مليء بأصوات السيارات والباعة. فجأة سمعت صوت شجار حاد عند زاوية الشارع.

اقتربت بحذر، فرأت شابًا ممسكًا بذراع صبي صغير، يصرخ فيه ويتهمه بسرقة محفظته.

الصبي كان يبكي بشدة وينكر، والناس واقفون يتفرجون دون أن يتدخل أحد.

خديجة شعرت بارتباك، قلبها ينبض بسرعة، لكنها تذكرت ما قاله جدها عن موقف لعلي بن أبي طالب حين وقف مع المظلوم أمام الظالم بلا خوف.

اقتربت وقالت للشاب بحزم:

– لو سمحت، بدل ما تضربه قدام الناس، نروح كلنا للمحل أو للشرطة ونشوف الحقيقة.

الشاب نظر لها بغضب:

– ومالك إنتِ؟

قالت:

– مالي؟ مالي إني مش هسكت على حد ممكن يكون بريء.

وبصوت ثابت طلبت من الناس اللي واقفين إنهم يفتشوا الصبي قدام الجميع، وبالفعل لم يجدوا معه شيئًا.

الشاب تلعثم، ثم غادر المكان، والصبي ظل واقفًا ينظر لخديجة بامتنان، قبل أن يركض مبتعدًا.

وهي تمشي، كان قلبها يخفق، لكن في داخلها شعور قوي بالرضا. همست لنفسها:

"علي كان يقول: لا تهيبوا في الحق لومة لائم."

الجد يسمع الحكاية

في تلك الليلة، جلست خديجة مع أسرتها بعد العشاء، لكن الجد لاحظ أن ابتسامتها مختلفة، كأن وراءها قصة.

اقترب منها وهمس:

– تعالي معايا على المكتب... عايز أسمع.

حكت له كل ما حدث في الشارع، وكيف وقفت أمام الشاب ودافعت عن الصبي.

الجد ظل يستمع بصمت، وعيناه تلمعان بفخر، ثم قال:

– يا خديجة، فعلتِ ما كان يفعله علي رضي الله عنه. أتدرين؟

في الكوفة، جاءه رجل يشكو أن أحد القادة أخذ أرضه ظلمًا، فاستدعى القائد فورًا، وجلس بينهما على الأرض لا على الكرسي، حتى يكونا متساويين، ثم سمع من الاثنين، ورد الأرض لصاحبها.

– علي لم يكن يرى نفسه أقوى من المظلوم، بل كان يرى نفسه مسؤولًا عنه أمام الله.

ابتسم الجد وأضاف:

– اليوم، أنتِ حملتِ جزءًا من روحه.

خديجة شعرت أن كلمات الجد كانت أغلى من أي مديح، وكأنها نالت وسامًا صغيرًا من التاريخ نفسه.

– الجد يسمع الحكاية

امتحان الصبر

بعد أيام قليلة، تلقت خديجة خبرًا أزعجها كثيرًا: إحدى زميلاتها في الدورة التدريبية التي التحقت بها، نقلت عنها كلامًا غير صحيح أمام المشرف، مما جعل المشرف يوبخها بلا سبب.

شعرت بالغضب الشديد، وكادت ترد على زميلتها أمام الجميع، لكن فجأة تذكرت قول جدها:

"علي كان يحلم على من أساء إليه، حتى إذا اعتذر إليه غفر له وكأنه لم يكن شيء."

أخذت نفسًا عميقًا، ولم تقل شيئًا. أنهت يومها بهدوء، رغم أن النار كانت في صدرها.

وفي اليوم التالي، جاءت الزميلة إليها بخجل وقالت:

– أنا آسفة... كنت منفعلة وتسرعت في الكلام.

ابتسمت خديجة، وقالت:

– حصل خير... المهم نتعلم.

كانت تعرف أن الصبر في هذه اللحظة أصعب من أي موقف شجاعة مرت به.

الخاتمة

في نهاية الأسبوع، كانت العائلة مجتمعة في بيت الجد. بعد الغداء، جمع الجد أحفاده حوله، والتفت إلى خديجة وقال:

– أريد أن أحكي لكم عن علي بن أبي طالب، لكن هذه المرة لن أحكي من الكتب، بل من حياتنا.

ثم قصّ عليهم مواقفها في الأيام الماضية، من مساعدة المسنة، إلى إنقاذ الصبي، ثم صبرها على زميلتها، وقال:

– يا أبنائي، هذا هو نهج علي: أن تبحثوا عن المحتاج قبل أن يطلب، أن تنصروا المظلوم ولو كنتم وحدكم، وأن تصبروا على الأذى حتى وإن كنتم قادرين على ردّه.

نظر إلى خديجة بابتسامة هادئة:

– أنتِ لم تعيشي زمن علي... لكنك جعلتيه يعيش فيكِ.

خديجة شعرت وقتها أن كل الحكايات التي سمعتها منذ طفولتها لم تعد مجرد قصص، بل صارت طريقة حياة.

النهاية

كـ// الشيماء فراج

عن الكاتبة:

الشيماء فراج كاتبة وروائية تحمل شغفًا خاصًا بالقصص التي تمزج بين التاريخ والوجدان الإنساني. تؤمن أن الكلمات جسورٌ تمتد بين القلوب، وأن الحكايات الصادقة قادرة على أن تترك أثرًا أعمق من أي سلاح.

بدأت رحلتها مع الكتابة منذ سنواتها الأولى، حيث وجدت في الورق والدفاتر عالمًا أرحب من الواقع، تسكنه الشخصيات الحية والمواقف الملهمة

تحرص الشيماء في أعمالها على أن تنسج بين سطورها قيم العدل، والشجاعة، والرحمة، مستلهمة ذلك من سير العظماء ومن التجارب الإنسانية اليومية، لتقدّم نصوصًا تمسّ القارئ في قلبه وعقله معًا